





بين القدر والشرع

الحمد لله الذي من اعتصم بحبل رجائه وفقه وهداه ، ومن لجأ إليه حفظه ووقاه ، ومن تواضع له رفعه وحماه ، والصلاة السلام على محمد عبده ورسوله ، أرسله إلى خلقه بالتوحيد وأوصاه بتقواه ، وعن طاعة الكفار والمنافقين حذّره ونهاه ، وعلى آله وأصحابه الذين عضوا على سنته بالنواجذ وتمسكوا بهداه ، أما بعد:

فقد اختصمت طوائف كثيرة من بني آدم في مصطلحات كثيرة على مر التاريخ ، وهكذا شأننا – نحن المسلمين – أخذنا بحظنا من ذلك خصوصا بعد أن بعد عنا زمن الوحي ، وفترت همم الطلب والاعتصام بالسمع ، فأطلق رجال لأفكارهم العنان بعيدا عن الشرع الحنيف والاعتصام به ، فتلقفوا كل فكرة جديدة وبدءوا يعرضون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عليها ، وهذا خلاف ما أمروا ، إذ المأمور به أن نعرض كل لفظ حادث على شرع الله ، فما وافقه أخذنا به وما خالفه طرحناه ، ولو فعلنا ذلك لسلم لنا ديننا ودنيانا ، ولكنها السنن كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،في الحديث المتفق عليه واللفظ للبخاري عَنْ أَبِى سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ :(لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ : فَمَنْ ؟!).

ولتقليد السابقين طرائق شتى ، منها ظهور الجدل في طوائف من هذه الأمة ، فلم يقفوا عند حدود الألفاظ ومعانيها التي حدها الشرع الحنيف ، فبدءوا باختراع حدود جديدة للألفاظ الشرعية ، ومن هنا نشأ الاضطراب واختلطت المفاهيم ، ومن تلك المصطلحات التي شهدت جدلا واسعا في العصور المتقدمة من عصر الأمة هو مصطلح القدر واختلاط الأمر الشرعي به ، فالتبس المأمور بالمقدور ، وسنحاول في هذه الرسالة الموجزة وضع بعض اللمسات على هذا الموضوع وكيفية انعكاسه على الساحة الدعوية بشكل عام والجهادية منها بشكل خاص ، وإنها دعوة لتصحيح المفاهيم ومدى التطبيق العملي السني للاعتقاد الصحيح الواجب .

إننا نعلم أن من تمسكوا بالسنة شرعا ، قد كافأهم ربهم قدرا ، فألهمهم الصواب عند كل اختلاف ، وأتاهم البصيرة عند كل فتنة ، قال السمعاني)الانتصار لأصحاب الحديث ١/٥):(قول أهل السنة إن طريق الدين هو السمع والأثر، وأن طريقة العقل والرجوع إليه وبناء السمعيات عليه مذموم في الشرع ومنهي عنه (،فعندما ظهرت فتنة القول بالقدر في أواخر عصر الصحابة على يد غيلان القدري أستنفر لها أعلام السنة ينافحون عن الشريعة ويذبون عن الدين ، فأنكرها من شهدها من الصحابة والتابعين كعبد الله بن عمر وعبد الله ابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع وغيرهم، قال ابن عباس حين نجم القول بالقدر) :هَذَا أَوَّلُ شِرْكِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَنْتَهِيَنَّ بِهِمْ سُوءُ رَأْيِهِمْ حَتَّى يُخْرِجُوا اللَّهَ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَ خَيْراً كَمَا أَخْرَجُوهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَ شَرًّا) (مسند أحمد (، وهذا ابن عمر يقول ليحيى بن يعمر حين أخبره أن التكذيب بالقدر قد ظهر بالبصرة: (قَالَ فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّى بَرِىءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ) ثم استدل بحديث جبريل وقوله صلى الله عليه وسلم في تعريف الإيمان (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)(صحيح مسلم .(

وفي صحيح ابن حبان عن ابن الديلمي ، قال : أتيت أبي بن كعب فقلت له : وقع في نفسي شيء من القدر ، فحدثني بشيء لعله أن يذهب من قلبي ، فقال : " إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحد في سبيل الله ، ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا ، لدخلت النار " ، قال : ثم أتيت عبد الله بن مسعود ، فقال مثل قوله ، ثم أتيت حذيفة بن اليمان ، فقال مثل قوله ، ثم أتيت زيد بن ثابت ، فحدثني عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . وفي خلق أفعال العباد للبخاري عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : سمع النبي صلى الله عليه وسلم قوما يتدارءون فقال : " إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه







بعضا ، فلا تضربوا بعضه بعضا ، ما علمتم منه فقولوا ، وما لا ، فكلوه إلى عالمه.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو :قَالَ هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَوْمًا – قَالَ – فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِى آيَةٍ فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يُعْرَفُ فِى وَجْهِهِ الْغَضَبُ فَقَالَ) :إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلاَفِهِمْ فِى الْكِتَابِ) .

ومن عرف قدر الله ومدلولاته زاد إيمانه وبقي في وجل يترقب الآخرة، قال المناوي فيض القدير) :(698 / 4) قال بعضهم : استأثر تعالى بسر القدر ونهى عن طلبه ولو كشف لهم عنه وعن عاقبة أمرهم لما صح التكليف كما لا يصح عند كشف الغطاء يوم القيامة فالسعادة فضل الله والشقاوة عدله قال الكرماني : وسر الله ينكشف للخلائق إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف لهم قبل دخولها(،قال ابن الجوزي) بستان الواعظين ١ / ١٠٧): (حكي عن محمد بن واسع رحمه الله أنه ما رآه أحد قط ضاحكا وإن كان ليبكي حتى يرحمه الناس فذكر له ذلك فقال يا أحبائي وكيف يضحك من لا يدري ما أثبت عليه في كتابه ولا يدري بما يختم له.(

وفي سنن أبي داود والبيهقي عن ابن عمر عَنِ النَّبِيِّ) صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ إِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُمْ وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهُمْ .(حسنه الألباني في مشكاة المصابيح ، قال المناوي في (فيض القدير ٤) : (699 / إن مرضوا فلا تعودوهم (أي لا تزوروهم في مرضهم بل اهجروهم لينزجروا فيتوبوا) وإن ماتوا فلا تشهدوهم(أي لا تحضروا جنائزهم ولا تصلوا عليهم وخص النهي عن حقوق المسلمين على المسلمين بهاتين الخصلتين لأنهما ألزم وأولى إذ المرض والموت حالتان مفتقرتان إلى الدعاء له بالصحة والصلاة عليه بالمغفرة.(

ومن شناعة مقالة القدريين أن العرب لم تقل بها حتى في جاهليتها ، نقل اللالكائي (اعتقاد أهل السنة ٥٣٨/٣) عن الإمام ثعلب قوله) : لا أعلم عربيا قدريا ، قيل له يقع في قلوب العرب القول بالقدر ، قال معاذ الله ما في العرب إلا مثبت القدر، خيره وشره ، أهل الجاهلية والإسلام ، ذلك في أشعارهم وكلامهم كثير) ،ثم تابعه اللالكائي قائلا: (وهو مذهب أهل السنة والجماعة يتوارثونه خلفا عن سلف من لدن رسول الله بلا شك ولا ريب (، وفي سنن بي داود عن عمر بن عبد العزيز تأكيد الإقرار بالقدر والإيمان به حتى جعله مستفاضاً مشاعا بين العرب في الجاهلية والإسلام فقال ، (لقد كان ذكره في الجاهلية ، الجهلاء يتكلمون به في كلامهم وفي شعرهم ، يعزون به أنفسهم على ما فاتهم ، ثم لم يزده الإسلام بعد إلا شدة ، ولقد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير حديث ولا حديثين ، وقد سمعه منه المسلمون فتكلموا به في حياته وبعد وفاته ، يقينا وتسليما لربهم ، وتضعيفا لأنفسهم ، أن يكون شيء لم يحط به علمه ، ولم يحصه كتابه ، ولم يمض فيه قدره (وأخرج البيهقي) القضاء والقدر ١٠/٢) عن سعيد بن أبي عروبة قال: سألت قتادة عن القدر قال) : تسألني عن رأي العرب والعجم ، إن العرب في جاهليتها وإسلامها كانت تثبت القدر ، وأنشدني في ذلك بيت شعر:

ما كان قطعي هول كل تنوفة ***************** إلا كتاب قد خلا مسطور

وهذا عنترة يقول في قصيدته:

يا عَبْلُ أيْنَ منَ المنيّة مهربي *************** إذْ كان ربِّي في السماء قضاها

وما أجمل مقالة ذلك الأعرابي التي نقلها اليافعي) مرهم العلل (1/151 قال):سئل إعرابي عن القدر فقال: ذلك علم اختصمت فيه الظنون وغلا فيه المختصمون والواجب علينا أن نرد ما أشكل علينا من حكمه إلى ما سبق من علمه) ، وهذا اعتقاد عموم المسلمين علماء وعامة المتمسكين بالمأمور والمؤمنين بالمقدور.

مراتب القدر:

قال ابن القيم عن مراتب القدر(شفاء العليل) : (1/29 وهي أربع مراتب المرتبة الأولى علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها ، المرتبة الثانية كتابته لها قبل كونها ، المرتبة الثالثة مشيئته لها الرابعة خلقه لها) ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية) الفتاوى): (3/2الكلام في الشرع والقدر هو من باب الطلب والإرادة الدائر بين الإرادة والمحبة وبين الكراهة والبغض نفيا وإثباتا) فإيمان العبد بقدر الله وفق مراد الله وخضوعه لشرعه دليل لعبوديته لله

وتوحيده له، ومن جهة الرب فالشرع والقدر موجب ربوبيته ومقتضى أسماءه وصفاته ، وهكذا فالقدر والشرع قد انتظما كل أنواع التوحيد.

ومخلوقات الله بين المشيئة الكونية والإرادة الشرعية، فما من أمر يحصل لمخلوق إلا وقد شاءه الله كونا أو أمر به شرعا والخلط بينهما أساس كثير من المصائب قديما وحديثا ، والعلم فيهما دقيق يحتاج استحضار العلم التام الذي وصفه ابن القيم بقوله) :شفاء العليل ج١/ص١٧٣) :(العلم التام المستلزم لأثره ويراد به المقتضى وإن لم يتم بوجود شروطه وانتفاء موانعه فالثاني يجامع الجهل دون الأول فتبين أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم(؛ فمن اهتدى فبفضل الله ورحمته ومن شقي فبعدل الله وحكمته وقد جعل الله تعالى تعليق الشرك والمعاصي على مشيئته تخرصاً وكذباً قال تعالى) :وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(فالمحبة والرضا لا تتعلق بالمشيئة فقد يشاء الله كونا ما يبغضه شرعا،قال المقدسي) الفروع):(2/223 ويحرم الرضا بما فعله العبد من كفر ومعصية ذكره ابن عقيل إجماعا.(

قال شيخ الإسلام) منهاج السنة النبوية) :(3/156 طريقة أئمة الفقهاء وأهل الحديث وكثير من أهل النظر وغيرهم أن الإرادة في كتاب الله نوعان إرادة تتعلق بالأمر وإرادة تتعلق بالخلق فالإرادة المتعلقة بالأمر أن يريد من العبد فعل ما أمره به وأما إرادة الخلق فأن يريد ما يفعله هو فإرادة الأمر هي المتضمنة للمحبة والرضا وهي الإرادة الدينية والثانية المتعلقة بالخلق هي المشيئة وهي الإرادة الكونية القدرية (، قال ابن القيم) التبيان في أقسام القرآن ١/٨٢): (وأما القدري فتحريفه أشد لأنه حمل المشيئة على الأمر وقال المعنى وما تشاءون إلا بأمر الله وهذا باطل قطعا فإن المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك وإنما استعملت في مشيئة التكوين كقوله تعالى) :ولو شاء ربك ما فعلوه (وقوله) :ولو شاء الله ما اقتتلوا(وقوله :)ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها(وقوله) :أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا(ونظائر ذلك مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الأمر البتة) وقال أيضا) شفاء العليل) :(1/134 وأهل العلم والاعتدال أعطوا كلا المقامين حقه ولم يبطلوا أحد الأمرين بالآخر فاستقام لهم نظرهم ومناظرتهم واستقر عندهم الشرع والقدر في نصابه ومهدوا وقوع الثواب والعقاب على من هو أولى به) وقال أيضا (طريق الهجرتين) :(1/162)واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة لا يجتمع إلا في قلوب خواص الخلق ولب العالم وليس الشأن في الإيمان بألفاظ هذه المسميات وجحد حقائقها كما يفعل كثير من طوائف الضلال فإن القدرية تؤمن بلفظ القدر ومنهم من يرده إلى العلم ومنهم من يرده إلى الأمر الديني ويجعل قضاءه وقدره هو نفس أمره ونهيه ونفس مشيئة الله لأفعال عباده بأمره لهم بها وهذا حقيقة إنكار القضاء والقدر) وقال (إعلام الموقعين ١/٣٣٢): (أن الذكر الأمري محيط بجميع أفعال المكلفين أمرا ونهيا وإذنا وعفوا كما أن الذكر القدري محيط بجميعها علما وكتابة وقدرا.(

وإذا تتبعت أحوال أهل الدعوة والجهاد اليوم تجد أن قدرية جديدة قد نشأت مصدرها هو الخلط بين القدر والشرع الذي ذكر سالفا ومن تلك المظاهر إشاعة فوضى عمليات التفجير والقتل في كل مكان ؛ بحجة أن القتلى سيبعثون على نياتهم فالمؤمن سوف يكون مسرورا لأنه سيذهب إلى الجنة والكافر سوف نرتاح منه لأنه سيذهب إلى النار عمدتهم في ذلك الحديث الذي يرويه البخاري عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) : يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ » . قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ، وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ . قَالَ :(يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ . (

فنقول هذه عقوبة قدرية قدرها الله على هذا الجيش وليس في الحديث أي دلالة على إطلاق اليد في القتل بلا سند شرعي صحيح فنصوص الشريعة متضافرة على تحريم القتل وتجريم القاتل حتى عد ذلك من أصول كبائر الذنوب في الإسلام قال تعالى (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً (، وفي الصحيحين عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِى ، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ (

وتأمل قوله عليه الصلاة والسلام فيمن سن القتل في بني البشر ، في الصحيحين عن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) : لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ، لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ . (وغيرها من الأدلة حتى عدها الأصوليون مفيدة القطع ، كما يقول الشاطبي (الموافقات) : (1/38 لأن أدلتها مأخوذة من مواضع تكاد تفوت الحصر وهي مع ذلك مختلفة المساق لا ترجع إلى

باب واحد إلا أنها تنتظم المعنى الواحد الذي هو المقصود بالإستدلال عليه وإذا تكاثرت على الناظر الأدلة عضد بعضها بعضا فصارت بمجموعها مفيدة للقطع) وقال (الموافقات) :(1/36 إنما الأدلة المعتبرة هنا المستقرأة من جملة أدلة ظنية تضافرت على معنى واحد حتى أفادت فيه القطع فإن للاجتماع من القوة ما ليس للافتراق ولأجله أفاد التواتر القطع وهذا نوع منه فإذا حصل من استقراء أدلة المسألة مجموع يفيد العلم فهو الدليل المطلوب وهو شبيه بالتواتر المعنوي بل هو كالعلم بشجاعة علي رضي الله عنه وجود حاتم المستفاد من كثرة الوقائع المنقولة عنهما) ثم قال (الموافقات)(1/39 في هذا المعنى النفس نهي عن قتلها وجعل قتلها موجبا للقصاص متوعدا عليه ومن كبائر الذنوب المقرونة بالشرك ووجب سد رمق المضطر ووجبت الزكاة والمواساة والقيام على من لا يقدر على إصلاح نفسه وأقيمت الحكام والقضاة والملوك لذلك ورتبت الأجناد لقتال من رام قتل النفس ووجب على الخائف من الموت سد رمقه بكل حلال وحرام من الميتة والدم ولحم الخنزير إلى سائر ما ينضاف لهذا علمنا يقينا تحريم القتل) . وقال الرازي) التفسير الكبير ١٨١/١٠) (حرمة القتل كانت ثابتة من أول زمان التكليف.(

إن إطلاق القول بإباحة القتل وإشاعته بهذه الطريقة ينافي تكريم الله للبشر ، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً(قال الرازي (المحصول) :(5/338 إن مجرد النظر إلى الإنسانية مع مالها من الشرف يفيد ظن حرمة القتل ، وأن عدم كونه جانيا ليس جزءا من المقتضى لهذا الظن وإذا كان كذلك فأينما حصلت الإنسانية حصل ظن حرمة القتل) ، وذلك لأن الوصف المناسب بعد التخصيص يقتضى ظن ثبوت الحكم فوجب العمل به ، وقال أيضا (التفسير الكبير ١٦٠/٢٠) :(إذا تعارض دليل تحريم القتل ودليل إباحته فقد أجمعوا على أن جانب الحرمة راجح(، وقال السرخسي) المبسوط) :(26/59 لما قتل محلم بن جثامة رجلا من أهل الجاهلية قال النبي عليه السلام) لا يرحم(فدفن بعد موته فلفظته الأرض ثم دفن فلفظته الأرض فقال):أما أنها تقبل من هو أعظم جرما منه ولكن الله أراكم حرمة القتل(، وفي قتل النفس إفساد العالم ونقض البنية ومثل هذا الفساد من أعظم الجنايات.

قال الشيخ القائد العام لجماعة الجيش الإسلامي في العراق" نصره الله" في رسالته الماتعة "الجهاد عبادة) :"المجاهدون مشروع بناء وفداء واستشهاد على وفق ما يحقق المقاصد الشرعية من الخلق والأمر وما شرع الجهاد لأجله) وقال أيضا : (فلا يتعبد الله تعالى بالجهاد إلا وفق شريعته لا بالأهواء والبدع. وأفضل الجهاد والعمل الصالح ؛ ما كان أطوع للرب ، وأنفع للعبد ، وخير الناس أنفعهم للناس . (وتحت هذه التوجيهات الكريمة صدرت سياساتنا العامة في هذا الشأن ومنها :و(الأصل في دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم الحرمة المغلظة إلا بحق واضح بيّن تبرأ به الذمة ويقرر ذلك أهل العلم) ، و(لا يشرع استهداف أهل الكتاب الذين يعيشون بين ظهرانينا اليوم إلا من ثبتت إدانته بعمل عدائي) ، و(عدم التعرض لأموال الكفار غير المحاربين) و)ليس كل كافر يجب قتله ، وقد يقتل من ليس بكافر وليس كل من جاز قتله وجب قتله (، و(وجوب النظر في المآلات في الأفعال عند الإقدام أو الإحجام) ، وغيرها من الضوابط والسياسات الشرعية التي تضبط أفعال المجاهدين وأقوالهم.

وبعد ، فنقول أين هذا النظر من الاستدلال الخاطئ أو الموهوم للحديث المتقدم الذي يتمسك به أصحاب الخلط بين قدر الله وشرعه ؟ فضلا عن ما ارتكبوه من منهيات فإنهم أحيوا بدعة قديمة بأفعالهم وخرجوا عن أصول أهل السنة إلى أقوال أهل القدر.

وقد تزين نفس الإنسان له حسن الظن بها فتزين له سوء عمله فيراه حسنا فتقوى نفسه عليه حتى تغلب عقله ويلعب به هواه ، وتمنعه صوارف غفلاته عن تأمل إصلاح شأنه فتنسيه فروعه وأصله فلا يشعر إلا وقد أشرف به الصلف على التلف فأفسد أمره كله، وهي سيئة إبليس الذي ترك الشرع واستدل بالقدر ، فحلت عليه اللعنة بسبب ذلك ، فطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه وأقواله البدعية ، وهذه الأقوال التي يستدل بها الأغرار شر من الأفعال.

واعلم –أخي المسلم– أن كل من علم تحريم شيء وجهل ما يترتب عليه لم يفده ذلك ، وأن الله تعبدنا بشرعه لا بأهوائنا ، وأن الاشتغال بغير المقصود إعراض عن المقصود ، فكيف إذا كان الاشتغال بضد المقصود ، وليحذر من يسود الصحائف من أن يضل بها عباد الله مثل أن يقول قولا مبتدعا ليس عليه نور الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح فيموت وتبقى مقالته بعده تضل الأجيال وإن تاب هو في نفسه وهذا حال كل البدع ، قال ابن قتيبة (تأويل مختلف الحديث ١٤/١): (والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضا ولو ظهر لهم من يدعي النبوة مع معرفتهم بأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم (خاتم الأنبياء أو من يدعي الربوبية لوجد على ذلك أتباعا وأشياعا.(

قال شيخ الإسلام)الفتاوى) :(4/392 ومن لم يثبت ما أثبته إلا بالألفاظ الشرعية التي أثبتها، وإذا تكلم بغيرها استفسر واستفصل ، فإن وافق المعنى الذي أثبته الشرع أثبته باللفظ الشرعي، فقد اعتصم بالشرع لفظًا ومعنى . وهذه سبيل من اعتصم بالعروة الوثقى.(

وأما من خالف الجادة ، وعدل عن المحجة ، واعتمد من دينه على ما يستحسنه ويراه ومن مذهبه على ما يختاره ويهواه عدم الاتفاق والائتلاف ، وكثر عليه أهلها لمباينة الاختلاف ، لأن الذي خالف بين الناس في مناظرهم ، وهيئاتهم، وأجسامهم ، وألوانهم ، ولغاتهم ، وأصواتهم ، وحظوظهم ، كذلك خالف بينهم في عقولهم ، وآرائهم ، وأهوائهم ، وإراداتهم ، واختياراتهم ، وشهواتهم ، فإنك لا تكاد ترى رجلين متفقين اجتمعا جميعا في الاختيار والإرادة ، حتى يختار أحدهما ما يختاره الآخر ، ويرذل ما يرذله إلا من كان على طريق الإتباع واقتفاء الأثر والانقياد للأحكام الشرعية ، فإن أولئك من عين واحدة شربوا ، فعليها يردون ، وعنها يصدرون قد وافق الخلف الغابر للسلف الصادر .

وليس من حق أحد أن يستدل بحسن نيته مع سوء عمله ، فالنية الصالحة لا تصلح العمل الفاسد ثم إن حسن القصد يجب أن يكون تبعا للشرع كذلك ، قال الشاطبي) الموافقات ٣٣١/٢): (قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقا لقصده في التشريع والدليل على ذلك ظاهر من وضع الشريعة إذ أنها موضوعة لمصالح العباد على الإطلاق والعموم والمطلوب من المكلف أن يجرى على ذلك في أفعاله وأن لا يقصد خلاف ما قصد الشارع ولأن المكلف خلق لعبادة الله وذلك راجع إلى العمل على وفق القصد في وضع الشريعة هذا محصول العبادة فينال بذلك الجزاء في الدنيا والآخرة.(

ونحن لنا ما يفرضه علينا الشرع في التعامل مع أقدار الله تعالى ، وكل ميسر لما خلق له ، في الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قَالَ :كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فِي جَنَازَةٍ فَقَالَ :(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ . (فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نَتَّكِلُ فَقَالَ) اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ . (ثُمَّ قَرَأَ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (إِلَى قَوْلِهِ (لِلْعُسْرَى. (، قال ابن القيم (التبيان في أقسام القرآن) :(1/41 والنبي صلى الله عليه وسلم أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى أن العبد ميسر لما خلق له لا مجبور فالجبر لفظ بدعي والتيسير لفظ القرآن والسنة) ، وقال شيخ الإسلام (الفتاوى : (16/237 ولهذا نص الأئمة كالإمام أحمد ومن قبله من الأئمة كالأوزاعي وغيره على إنكار إطلاق القول بالجبر نفيا وإثباتا فلا يقال إن الله جبر العباد ، ولا يقال لم يجبرهم، فإن لفظ الجبر فيه اشتراك وإجمال فإذا قيل : جبرهم ، أشعر بأن الله يجبرهم على فعل الخير والشر بغير اختيارهم وإذا قيل : لم يجبرهم ، أشعر بأنهم يفعلون ما يشاءون بغير اختياره وكلاهما خطأ) وقال ابن الوزير) إيثار الحق ٢٥١/١): (يذكر أهل السنة علم الغيب وما ورد في القدر والقضاء وأنهما بمعزل عن الجبر والإكراه ونفي الاختيار.(

قال حافظ بن أحمد حكمي) معارج القبول ١٣٧/١): عن أهل السنة (ونزلوا كلا من القدر والشرع منزلته ولم ينصبوا الخصام بينهما فالقضاء والقدر يؤمن به ولا يحتج به والأمر والنهي يطاع ويمتثل) ، وقال ابن القيم (شفاء العليل ٢٦/١) : (فالنبي صلى الله عليه وسلم أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببا السعادة الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره وذلك نظام الشرع. (وقال أيضا (إعلام الموقعين ٣٣٦/١) : (والمذهب الوسط الذي هو في المذاهب كالإسلام في الأديان وعليه سلف الأمة وأئمتها والفقهاء المعتبرون من إثبات الحكم والأسباب والغايات المحمودة في خلقه سبحانه وأمره وإثبات لام التعليل وباء السببية في القضاء والشرع كما دلت عليه النصوص مع صريح العقل والفطرة واتفق عليه الكتاب والميزان. (

قال ابن تيمية (الفتاوى) : (16/243 الضلال في القدر حصل تارة بالتكذيب بالقدر والخلق وتارة بالتكذيب بالشرع والوعيد وتارة بتظليم الرب) ، وأما المتبعون للسلف فإنهم حدوا كل أمر بحده فميزوا بين قدر الله وشرعه ، ومن الناس من يحتج بالقدر لنفسه ولا يراه حجة لغيره يستند إليه في الذنوب والمعائب ولا يطمئن إليه في المصائب كما قال بعض العلماء أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري أي مذهب وافق هواك تمذهبت به ، ومنهم الذين يضيفون ما أصابهم من المصائب إلى فعل أهل الإيمان ، قال تعالى (وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً(ولو تتبعت أقوال كثير من الناس تجدهم يلومون أهل الإيمان على مصائب قدرية لا دخل لهم بها.






السبب والمسبب:

والمسلم مأمور أن يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله ولا يعجز ولا يتكل على القدر، قال ابن القيم) التبيان في أقسام القرآن ١/٨٢): (والأسباب هي مجاري الشرع والقدر فعليها يجري أمر الله الكوني والديني) ، وقال أيضا (شفاء العليل ١/١٨٨): (أنه سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني القدري ومحل ملكه وتصرفه) ، ثم قال) الموجودات كلها أسباب ومسببات والشرع كله أسباب ومسببات والمقادير أسباب ومسببات والقدر جار عليها متصرف فيها فالأسباب محل الشرع والقدر) ، قال القرافي) الفروق 8 /299) : (والله تعالى ملك الملوك وأعظم العظماء بل أعظم من ذلك رتب ملكه على عوائد أرادها ، وأسباب قدرها ، وربط بها آثار قدرته ، ولو شاء لم يربطها فجعل الري بالشرب ، والشبع بالأكل ، والاحتراق بالنار والحياة بالتنفس في الهواء فمن طلب من الله تعالى حصول هذه الآثار بدون أسبابها فقد أساء الأدب مع الله سبحانه وتعالى ، بل يلتمس فضله في عوائده (، قال الشاطبي (الموافقات ١/٩٣): (لا يلزم في تعاطي الأسباب من جهة المكلف الالتفات إلى المسببات ، ولا القصد إليها بل المقصود منه الجريان تحت الأحكام الموضوعة لا غير أسبابا كانت أو غير أسباب معللة كانت أو غير معللة والدليل على ذلك أن المسببات راجعة إلى الحاكم المسبب وإنها ليست من مقدور المكلف فإذا لم تكن راجعة إليه فمراعاته ما هو راجع لكسبه هو اللازم وهو السبب وما سواه غير لازم .(

قال ابن القيم (مدارج السالكين ٣/١٠٤) :(فهو الذي جعل السبب سببا وهو الذي رتب على السبب حصول المسبب ولو شاء لأوجده بغير ذلك السبب وإذا شاء منع سببية السبب وقطع عنه اقتضاء أثره وإذا شاء أقام له مانعا يمنعه عن اقتضاء أثره مع بقاء قوته فيه وإذا شاء رتب عليه ضد مقتضاه وموجبه ، فالأسباب طوع مشيئته سبحانه وقدرته وتحت تصرفه وتدبيره يقلبها كيف شاء (، والمؤمنون هم من طلب فضل الله في عوائده فلم يتكلفوا طلب خرق للعادة فجمعوا بين التوكل والأدب مع ربهم ، قال القرافي) الفروق) : (8 /498 يجب على كل عاقل أن يفهم عوائد الله تعالى في تصرفاته في خلقه وربطه المسببات بالأسباب في الدنيا والآخرة مع إمكان صدورها عن قدرته بغير تلك الأسباب أو بغير سبب ألبتة بل رتب الله تعالى مملكته على نظام ووضعها على قانون قضاه وقدره) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ (، فإذا سأل الداعي من الله تعالى تغيير مملكته ونقض نظامه وسلوك غير عوائده في ملكه كان مسيئا الأدب عليه عز وجل بل ذلك سوء أدب على أدنى الملوك بل الولاة ، ولذلك عاب العلماء وغلطوا جماعة من العباد حيث توسطوا القفار من غير زاد ولججوا في البحار في زمن الهول في غير الزمن المعتاد طالبين من الله تعالى خرق عوائده لهم في هذه الأحوال فهم يعتقدون أنهم سائرون إلى الله تعالى وهم ذاهبون عنه ظانين أن هذه الحالة هي حقيقة التوكل وأن ما عداها ينافي الاعتماد على الله تعالى وهذا غلط عظيم فقد دخل سيد المتوكلين محمد رسول الله مكة محفوفا بالخيل والرجل والكراع والسلاح في كتيبته الخضراء مظاهرا بين درعين على رأسه مغفر من حديد ، وقال في أول أمره من يعصمني حتى أبلغ رسالة ربي وكان في آخر عمره عند أكمل أحواله مع ربه يدخر لعياله قوت سنة وهو سيد المتوكلين.)

القدر والعمل:

في مسند الإمام أحمد :عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم –رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم قَالَ :(لاَ يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلاَّ الدُّعَاءُ وَلاَ يَزِيدُ فِى الْعُمُرِ إِلاَّ الْبِرُّ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ. (حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

نقل ابن القيم (مدارج السالكين ٣/١٠٤) عن مطرف بن عبد الله قوله) :تذاكرت ما جماع الخير فإذا الخير كثير الصيام والصلاة وإذا هو في يد الله تعالى وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك فإذا جماع الخير الدعاء(

وما أجمل ما أنشده ابن القيم (مدارج السالكين:(3/104

قالوا أتشكوا إليه*************ما ليس يخفى عليه

فقلت ربي يرضى************* ذل العبيد لديه

وأخرج الترمذي وحسنه عن بن أبي خزامة عن أبيه قال : قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً

نَتَدَاوَى بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا قَالَ) هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ .(

واخرج الترمذي وصححه عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ قَالَ: قَالَتِ الأَعْرَابُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ نَتَدَاوَى قَالَ) نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ شِفَاءً أَوْ قَالَ دَوَاءً إِلاَّ دَاءً وَاحِدًا .(قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُوَ قَالَ) الْهَرَمُ.(

وهنا ضل أقوام بفهمهم الخاطئ للتوكل وعلاقته بالقدر فظنوا أن العمل ينافي التوكل ، بل ظنوا أن العمل يعارض قدر الله فقعدوا عن الجهاد المتعين عليهم مثال ذلك عندما دهم الكفار أرض المسلمين في شمال أفريقيا قبل نحو قرنين من الزمان أشاعوا في العامة أن تسلط الفرنجة هو من قدر الله فمن حاربهم فقد حارب قدر الله عز وجل ، ففرح الكفار أيما فرح بهذا الفهم الخاطئ والتدليس الشنيع على الشرع الحنيف وأشاعوه بين الناس ، وهكذا تجد –أخي المسلم –أن البعد عن الفهم الصحيح لشرع الله أساس كل بلاء ، وكم من بدعة يراها الناس صغيرة لا يلقون لها بالا ، وهي تكبر وتنمو مع الأيام حتى تكون أساسا لكثير من المصائب التي تحل بالأمة.

هل ينسب الشر إلى الله ؟

من أصول أهل السنة، النفي المجمل لجميع النقائص في حق الله تعالى وإن الشر المحض الذي ليس فيه خير لا حالا ولا مآلا ، لا ينسب إلى الله أبدا ، وهو نسبي فهو شر بالنسبة لفرد أو مجموعة أو صنف من الخلق ، ولكنه خير بالنسبة لعموم الخلق ، قال ابن القيم :(أحكام أهل الذمة 2/908) وليس في شرع الله ولا في قدره إضاعة الخير العظيم لما في ضمنه من شر يسير لا نسبة له إلى ذلك الخير البتة بل مدار الشرع والقدر على تحصيل أعلى المصلحتين بتفويت أدناهما وارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما) ، وقال الشاطبي) الموافقات) :(1/199 وذلك أن المعلوم من الشريعة أنه شرعت لمصالح العباد فالتكليف كله إما لدرء مفسدة وإما لجلب مصلحة أو لهما معا فالداخل تحته مقتض لما وضعت له.(

والشر الذي يقدره الله تعالى على عباده هو خير في حقيقته لأنهم إذا صبروا واحتسبوا الأجر كانت عاقبتهم ومآلاتهم خيرا من الشر الذي أصابهم ، وفي هذا السياق نفهم تقدير الله تعالى للمصائب على عباده المخلصين.

قال ابن القيم (شفاء العليل ١/ ١٦٦): (والشر لا يضاف إلى الله إرادة ولا محبة ولا فعلا ولا وصفا ولا اسما فإنه لا يريد إلا الخير ولا يحب إلا الخير ولا يفعل شرا ولا يوصف به ولا يسمى باسمه ،(قال حافظ بن احمد حكمي (معارج القبول ٢٢٥/١) :(والله تعالى منزه بجميع أسمائه وصفاته وأفعاله عن جميع النقائص فجميع ما خلقه وقضاه وقدره خير وحكمة من جهة إضافته إليه سبحانه وتعالى وكذلك جميع ما شرعه وأمر به كله حكمة وعدل وما كان من شر في قضائه وقدره فمن جهة إضافته إلى فعل العبد لأنها معصية مذمومة مكروهة للرب غير محبوبة وأما من جهة إضافته إلى الرب عز و جل فخير محض ولحكمة بالغة وعدل تام وغاية محمودة لا شر فيها البتة .(

قال شيخ الإسلام (الفتاوى ٨ / ٤٠٠): (وفي هذا المقام تعرف أولوا الألباب سر قوله) : سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي (وَقَوْلِهِ (الشَّرُّ لَيْسَ إلَيْك) وَقَوْلِهِ :)بِيَدِكَ الْخَيْرُ (وقوله) : مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (وقوله) : وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (،) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا(؟ وما شاكل ذلك من أن الشر إما أن يحذف فاعله أو يضاف إلى الأسباب أو يندرج في العموم وأما إفراده بالذكر مضافا إلى خالق كل شيء فلا يقتضيه كلام حكيم لما توجبه الحقيقة المقتضية للأدب المؤسس.(

قال الشاطبي (الموافقات ٢ / ١٦٦): (الأدب في ترك التنصيص على نسبة الشر إلى الله تعالى، وإن كان هو الخالق لكل شيء(

وقال البيهقي (القضاء والقدر ٣٦١/١) :في قوله صلى الله عليه وسلم) :الشر ليس إليك : (معناه :فيما أخبرت عن أبي سليمان الخطابي رحمه الله الإرشاد إلى استعمال الأدب في الثناء على الله عز وجل والمدح له بأن يضاف إليه محاسن الأمور دون مساويها ، ولم يقع القصد به إلى إثبات شيء وإدخاله تحت قدرته ونفي ضده عنها ، فإن الخير والشر صادران عن خلقه وقدرته لا موجد لشيء من خلقه غيره ، وقد يضاف محاسن الأمور ومحامد الأفعال إلى الله عز وجل عند الثناء عليه دون مساويها ومذامها كقوله) : وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(، وكقوله) : وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ (ولم يضف سبب وقوعه في السجن إليه ، وكما يضاف معاظم الخليقة إليه عند الثناء والدعاء فيقال : رب السموات والأرضين ، كما يقال : يا رب الأنبياء والمرسلين ، ولا يحسن أن يقال : يا رب الكلاب ويا رب القردة والخنازير ونحوها من سفل الحيوان وحشرات الأرض ، وإن

كانت إضافة جميع المكونات إليه من جهة خلقه لها والقدرة عليها شاملة لجميع أصنافها. (

والله تعالى حكم عدل حكيم ، قال ابن القيم) شفاء العليل ١/٢٧٦): (العدل وضع الأشياء في مواضعها التي تليق بها وإنزالها كما أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وقد تسمى سبحانه بالحكم العدل (وقال): المقصود أنه أعدل العادلين في قضائه بالسبب وقضائه بالمسبب فما قضى في عبده بقضاء إلا وهو واقع في محله الذي لا يليق به غيره إذ هو الحكم العدل الغني الحميد.(

وقال حافظ بن أحمد حكمي) معارج القبول ١/٢٢٦): (فإذا علم أن موجب السيئات هو الظلم والجهل وذلك من نفس العبد وهي أمور ذاتية لها وأن السيئات هي موجب العقوبة والعقوبة من الله عدل محض وإنما تكون شرا في حق العبد لما يلحقه من ألمها وذلك بما كسبت يداه جزاء وفاقا كما قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير. (

فالله تعالى دل عباده على الخير فقال) :قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (وقال) :يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ (وقال) :يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (وقال) :يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (وقال) :يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (وحذرهم مسالك عدوهم الشيطان فقال) :يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (، وحذرهم مصير العصاة وقال) :لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (وقال) :يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (وقال) :يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (وحدد طريق الحق والباطل) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (وقال هذه طريق الحق والنجاة وتلك طريق الباطل والضلال) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (وأرسل رسوله رحمة لهم) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (وأمره بالتبليغ التام الشامل فقال) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (و)قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً (و)وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (فأمرهم ونهاهم ودلهم على طريق النجاة فمن أبصر فلنفسه عمل ومن عمي فلا يلومن إلا نفسه، قال تعالى (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ(، وقال) :إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً(،وفي صحيح مسلم عن أبي ذر، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال(يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه)، وفي نفس الحديث (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم (، فمن لم يتعرف طريق الهداية في مظانها وهي شرع الله كتاباً وسنةً ولم يطلبها من مانحها وهو الله تعالى الهادي الكريم الودود فكيف له أن يهدى ، ثم بعد ذلك يسلك سبيل الضلال فيحتج على ربه بأنه هدى غيره ولم يهده وقد أقام ربنا الحجة بنفسه لنفسه فقال) :لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ(، فما يقول الظالمون بعدها.

وتلك إشكالية ضلت بها أ قوام فقالوا بأن الله جل شأنه قد أجبر خلقا من خلقه على الضلال ، لأنه قد هدى خلقاً غيرهم وأضلّهم ،" تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا"، بل إن طغاة الجهمية النفاة الذين نفوا الأسماء والصفات كلها عن الله ، قالوا بأن لله اسما واحدا هو القادر من أجل أن يقولوا بالجبر ، وفي الطرف المقابل القدرية ومنهم المعتزلة الذين نفوا خلق الله لأفعال العباد من أجل أن يبعدوا القول بالظلم الذي ظنوا أن الله جل شأنه سيتصف به إن قلنا أنه خالق كل شيء فنفوا القدرة والعلم عن ربهم والمضحك المبكي أنهم جعلوا هذا أصلهم الثاني وسموه العدل.

ولو اعتصم هؤلاء بالحدود الشرعية لمعاني الألفاظ ومدلولاتها وتعرفوا على ربهم عن طريق شرعه واعتصموا بقوله تعالى) لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ(في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لأراحوا وارتاحوا .

قال شيخ الإسلام (الفتاوى) :(4/264 لا منافاة بين كون العبد مُحْدِثًا لفعله ، وكون هذا الإِحْدَاث ممكن الوجود . بمشيئة الله تعالى ولهذا كان مذهب أهل السنة المحضة أن العبد فاعل لفعله حقيقة .(وقال) (4/263) فلما قال) : فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(، كان الكلام تفريقًا بين الحسن

المأمور به والقبيح المنهي عنه ، وأن الأفعال منقسمة إلى حسن وسيئ ، مع كونه تعالى خالق الصنفين وهذه طريقة القرآن . في غير موضع . يذكر المؤمن والكافر وأفعالهما الحسنة والسيئة ، ووعده ووعيده ، ويذكر أنه خالق الصنفين ، كقوله) :يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء (، ونحو ذلك.

وقال الشاطبي (الموافقات ١٩٦/١) :(فالله خالق السبب والعبد مكتسب له) (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (و)اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (و)وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (و)وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (وفي حديث العدوى قوله عليه الصلاة والسلام فمن أعدى الأول. رواه الشيخان.

وقال ابن القيم (شفاء العليل ٢٧٦/١) : (فمن أراد أن يكمله أقبل بقلبه إليه وجذبه إليه وألهمه رشده وألقى فيه أسباب الخير، ومن لم يرد أن يكمله تركه وطبعه وخلى بينه وبين نفسه لأنه لا يصلح للتكميل وليس محله أهلا ولا قابلا لما وضع فيه من الخير وها هنا انتهى علم العباد بالقدر (.

ونقل ابن بطة (الإبانة الكبرى) عن أبي سليمان الداراني وقد سئل عن الإعجاب بالعمل قوله: (كيف يعجب عاقل بعمله؟ ، وإنما يعد العمل نعمة من الله عز وجل ينبغي أن يشكر الله ويتواضع ، إنما يعجب بعمله القدري الذي يزعم أنه يعمل ، فأما من زعم أنه يستعمل ، فكيف يعجب ؟.(

القدر والتوكل:

قال القرطبي (تفسير القرطبي ١٨٩/٤): (وأن التوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة (ثم قال (المتوكلون على حالين الأول حال المتمكن في التوكل فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر، الثاني حال غير المتمكن وهو الذي يقع له الالتفات إلى تلك الأسباب أحيانا غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية والبراهين القطعية والأذواق الحالية فلا يزال كذلك إلى أن يرقيه الله بجوده إلى مقام المتوكلين المتمكنين ويلحقه بدرجات العارفين) وقال ابن حجر)فتح الباري) (11/410 قال أبو القاسم القشيري التوكل محله القلب وأما الحركة الظاهرة فلا تنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من قبل الله فان تيسر شيء فبتيسيره وان تعسر فبتقديره (وفي هذا السياق وفي أمثاله نفهم حديثه صلى الله عليه وسلم) : اعقلها وتوكل . (قال الألوسي (روح المعاني ٢٩٠/٣) : (أصل التوكل إظهار العجز والاعتماد على الغير والاكتفاء به في فعل ما يحتاج إليه ، وهو عندنا على الله سبحانه لا ينافي مراعاة الأسباب بل يكون بمراعاتها مع تفويض الأمر إليه تعالى شأنه. (

قال ابن حجر (فتح الباري) : (82 /6 التوكل لا ينافي تعاطي الأسباب لأن التوكل عمل القلب وهي عمل البدن) ، وقال (فتح الباري ١٠/ ٢١٢): (من وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماض لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب إتباعا لسنته وسنة رسوله ، فقد ظاهر صلى الله عليه وسلم في الحرب بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك .(

قال المناوي (فيض القدير) :(1/211 إن من عوائد الله تعالى في خلقه تعلق الأحكام بالأسباب وترتيب الحوادث على العلل وهذه سنته في خلقه مطردة وحكمته في ملكه مستمرة وهو وإن كان قادرا على إيجاد الأشياء اختراعا وابتداعا لا بتقديم سبب وسبق علة (، قال القرافي (الفروق ٨ /٣٠٠) :(إذا قيل : الإيمان سبب لدخول الجنة والكفر سبب لدخول النار بالجعل الشرعي كسائر الأسباب فهل هو تارك هذين السببين أو معتبرهما فإن ترك اعتبارهما خسر الدنيا ، وإن اعتبرهما فقال : لا بد من الإيمان ، وترك الكفر فيقال له: ما بال غيرهما من الأسباب إن كان هذان لا ينافيان التوكل فغيرهما كذلك نعم من الأسباب ما هو مطرد في مجرى عوائد الله – تعالى – كالإيمان والكفر والغذاء والتنفس وغير ذلك ، ومنها ما هو أكثري غير مطرد لكن الله – تعالى – أجرى فيه عادة من حيث الجملة كالأدوية وأنواع الأسفار للأرباح ونحو ذلك والأدب في الجميع إلتماس فضل الله – تعالى – في عوائده ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالدواء والحمية واستعمال الأدوية حتى الكي بالنار (فأمر بكي سعد) ، وقال عليه السلام) :المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وصلاح كل جسم ما اعتاد (وإذا كان حاله في الأسباب التي ليست مطردة من الحمية وإصلاح البدن بمواظبة عادته فما ظنك بغير ذلك من العوائد ، فهذا هو الحق الأبلج ، والطريق الأنهج. (






وأخرج أحمد وبن ماجة عن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا(وفيه الحث على التوكل والعمل معا ، فعمل الطير الغدو والرواح ، وليس فيه حجة للقاعدين .

والعارف كما يقول ابن القيم (طريق الهجرتين) :(1/68 إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأدوية الدافعة للمرض فحق هذا الحكم الكوني أن يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه فإن غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك فيكون قد دفع القدر بالقدر ونازع الحكم بالحكم وبهذا أمر هذا حقيقة الشرع والقدر ومن لم يستبصر فيه هذه المسألة ويعطها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية ولا ينازع أقداره في حق مولاه وأوامره ودينه وهل هذا إلا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه.(

وقال أيضا (مدارج السالكين ١/١٩٩): (والرجل من يكون منازعا للقدر لا من يكون مستسلما مع القدر ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف في معادهم.(

فهذا هو التعاطي الشرعي الذي يحبه الله تعالى في مسالة القدر وكما يقول القرطبي (الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٣٣): (هو مقتضى قول الرسول عليه السلام ، وعليه عمل أصحابه البررة الكرام رضي الله عنهم ، وقد قال عمر لأبي عبيدة محتجا عليه لما قال له : (أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ فَقَالَ عُمَرُ لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ (المعنى : أي لا محيص للإنسان عما قدره الله له وعليه ، ولكن أمرنا الله تعالى بالتحرز من المخاوف والمهلكات ، وباستفراغ الوسع في التوقي من المكروهات .ثم قال له : (أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ (، فرجع عمر من موضعه ذلك إلى المدينة، وفي مسند الإمام أحمد عن رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ قَالَ (عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ .(

ولابن القيم كلمة جامعة في قضاء الله وقدره وضح فيها ما أشكل على غيره وفصل ما أجمله سواه فقال) شفاء العليل ١/٢٧٨) :(الحكم والقضاء نوعان ديني وكوني فالديني يجب الرضا به وهو من لوازم الإسلام والكوني منه ما يجب الرضا به كالنعم التي يجب شكرها ومن تمام شكرها الرضا بها ومنه ما لا يجوز الرضا به كالمعايب والذنوب التي يسخطها الله وإن كانت بقضائه وقدره ومنه ما يستحب الرضا به كالمصائب وفي وجوبه قولان هذا كله في الرضا بالقضاء الذي هو المقضي وأما القضاء الذي هو وصفه سبحانه وفعله كعلمه وكتابه وتقديره ومشيئته فالرضا به من تمام الرضا بالله ربا وإلها ومالكا ومدبرا فبهذا التفصيل يتبين الصواب ويزول اللبس في هذه المسألة العظيمة التي هي مفرق طرق بين الناس. (

تمعن –يا رعاك الله – في هذه المعاني وتأمل كم من جناية على شرع الله إقترفها الكفار الذين وطئوا أرض المسلمين وأذنابهم حيث كانوا يقولون إن آفة هذه الأمة في إيمانها بالقدر الذي جعلها مستسلمة خانعة لا تمتلك الإرادة للعمل ، ولو كان الإيمان بالقدر كذلك لما نبهوا هذه الأمة إليه ولعظموا شأنه لكي يستمر السبات الطويل فهم أحرص الناس على خذلاننا حسدا من عند أنفسهم كما وصفهم ربنا فقال) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ (وقال: (لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) .

شبهات وردها:

وفي مجال الدعوة ، من الدعاة من ضيق مفهوم الطائفة المنصورة التي وصفها رسول الله بأنها الجماعة وما عليه هو وأصحابه والتي جعلها الله تمثل أمة الإسلام في معناها النقي الذي يريده الله ، حتى إنك تستطيع في بعض الأحيان عد أعيانهم في قريتك أو مدينتك وهذا من التنطع بمكان وخلط بين شرع الله وقدره ، فشرع الله يدعونا إلى استيعاب المسلمين وجماهيرهم وليس إلى تعداد الأوصاف التي ظنوا أنها ستجعل من هذه الطائفة مشهورة معلومة ، وبعض الدعاة مع حسن قصدهم قد حجروا واسعا وكثير من استدلالاتهم هي من باب الاختيارات الفقهية وبعضها الآخر من الأدلة القدرية وليست من الأوامر الشرعية نحو قول ابن مسعود رضي الله عنه) الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك) وفيه لزوم إتباع الحق وهو ما كان عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ولو كنت وحدك وليس فيه دليل على أن الحق مع القلة دائما أو أن القلة صفة لازمة من صفات الفرقة الناجية . واستدلوا كذلك بقوله تعالى (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)وقوله تعالى (وقليل من عبادي الشكور) وقوله تعالى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) ونحو







)وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (وكقوله) وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ(ونحو قولهِ) وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (ونحو قوله تعالى) :لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (وغيرها فنقول إن هذه الآيات المباركات إنما توصف حالا مطلوبا للتغيير ، وتدل على عظم مسئولية الدعاة إلى الحق ولا تدل مطلقا على أن من صفات الفرقة الناجية أنها الأقل دائما ، إذ حصة الأمة هي الأعم الأعظم من هذا الأقل (من المؤمنين والشاكرين) فنسبة أهل السنة هي إلى المتبقي من الناس أي (من المؤمنين) وليس من أصل الناس كلهم وهذا معنى دقيق لمن تأمله وتأمل في حديثه صلى الله عليه وسلم في الصحيحين يدلك على الأمرين عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضيّ الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ) يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَا آدَمُ . فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ أَخرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ.(قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ قَالَ »أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ ، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ . (ثُمَّ قَالَ) وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ . (فَكَبَّرْنَا . فَقَالَ) أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ . (فَكَبَّرْنَا . فَقَالَ) أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ . (فَكَبَّرْنَا . فَقَالَ) مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ .(وفي المسند عنِ بُرَيْدَةَ الأسلمي أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ) أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ هَذِهِ الأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُونَ صَفًّا(وهذه كلها للطائفة المنصورة الذين يمثلون الأمة وهم أهل السنة والجماعة المتبعين سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) والمترضين عن الصحابة والسلف السائرون على نهجهم ،فلا ينبغي تحجير الواسع.

وإذا كان الناس كذلك أي _لا يشكرون ولا يؤمنون ويجهلون الحق _وهم كذلك كما دلت الآيات الكريمات وحديث الصحيحين المتقدم فان الغاية أن ننطلق بهم نحو دين الله أفواجا لتحقيق الغاية التي دلنا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الذي يرويه مسلم عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِىَ لِي مِنْهَا. (ولتحقيق الغاية يجب البلاغ عنه صلى الله عليه وسلم ولو بآية عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ) بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ .(

إخوتي في الله،

إن المطلوب شرعا هو دعوة الناس كافة وتوسيع سبل الخير وتضييق مسالك الشيطان والتفريق بين الواجب والمستحب ومعرفة أحوال المكلفين وتيسير أمورهم والرحمة بهم وإننا عندما نتحدث ونتصرف إنما نتصرف من واقع سعة مفهوم الأمة وليس ضيق الطائفة ، ومن ضيق، ضيق الله عليه ولو علم هؤلاء الدعاة "وفقهم الله" العامة دين الأعرابي على وجه الإلزام لكان خيرا .

في الصحيحين عن طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ قال : جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ، ثَائِرُ الرَّأْسِ ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ ، وَلاَ يُفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) :(خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ(، فَقَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا قَالَ) :لاَ ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ(، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) :(وَصِيَامُ رَمَضَانَ. (قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ قَالَ) لاَ ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ . (قَالَ وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) :(الزَّكَاةَ . (قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا قَالَ) لاَ ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ . (قَالَ فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) :(أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ . (

إن من شدد على نفسه شدد الله عليه .كما حصل لقوم موسى في ذبح البقرة فإنهم لو امتثلوا أول ما أُمِروا ، فذبحوا أيّ بقرة لكفاهم ، ولكنهم شددوا ، وتعنتوا ، فشدد الله عليهم ، في البخاري عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ) صلى الله عليه وسلم) قَالَ :(إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ.(

الحسنة والسيئة:

وهذا باب قد ضل فيه صنف من الناس لبس عليهم مشيهم في تلك المفاوز بلا كبير زاد من كتاب أو سنة فمنهم من نفى قدرة العبد وجعله مجبورا مستدلين بنحو قوله تعالى) :كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ (ونحو قوله) وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (ويقابلهم صنف آخر جعلوا كل ذلك من

فعل العبد وعندهم إن الله لا يخلق أفعال العباد واستدلوا بنحو قوله تعالى) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (فهم لا يفرقون في الأعمال بين الحسنات والسيئات إلا من جهة الأمر .

أما أهل السنة فعندهم أن لفظ الحسنة والسيئة قد ورد في كتاب الله على معان عدة ففسروا كلا منها بما يناسبه ومن تلك المعاني

العيش الرغيد أو النعم (الحسنة) والجدب والقحط أو المصائب) السيئة (مثل قوله تعالى (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)، قال القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) :(5/ 285 أي ما أصابك يا محمد من خصب ورخاء وصحة وسلامة فبفضل الله عليك وإحسانه إليك ، وما أصابك من جدب وشدة فبذنب أتيته عوقبت عليه . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته) وقال النحاس: (لأنه نزل في شيء بعينه من الجدب ، وليس هذا من المعاصي في شيء ولو كان منها لكان وما أصبت من سيئة.(

قال ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٤٦/٣) (قوله تعالى) :مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) :(بيان أن الإنسان هو فاعل السيئات ، وأنه يستحق عليها العقاب , واللّه ينعم عليه بالحسنات عملها وجزائها فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من اللّه، فالنعم من اللّه ، سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء، وإذا كانت جزاء وهى من الله فالعمل الصالح الذي كان سببها هو أيضاً من الله ، أنعم بهما الله على العبد ، وإلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه. (

وترد الحسنة بمعنى الطاعة والسيئة بمعنى المعصية في نحو قوله تعالى) : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا (وقوله تعالى) مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا (وقوله تعالى) وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا) وقوله تعالى) :إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ. (

قال ابن عثيمين (أصول في التفسير : (37 إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقدير الله عز وجل ، لكن الحسنة سببها التفضل من الله تعالى على عباده ، أما السيئة فهي من فعل العبد كما قال تعالى) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى:٣٠ (فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه ، لا من إضافته إلى مقدره ، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مقدره ، وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لانفكاك الجهة.

وقد تكون الحسنة هي التي تدعو إلى مثيلتها ، وكذلك السيئة ، قال ابن تيمية (الصفدية ١) : (88/ فإن الحسنة تدعو إلى الحسنة والسيئة تدعو إلى السيئة كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه) عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِى إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا(وقال بعض السلف إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها. (

قال ابن القيم (شفاء العليل ١/ ١٦٦): (قل كل من عند الله ولم يقل من الله لما جمع بين الحسنات والسيئات والحسنة مضافة إلى الله من كل وجه والسيئة إنما تضاف إليه قضاء وقدرا وخلقا وأنه خالقها كما هو خالق الحسنة فلهذا قال قل كل من عند الله وهو سبحانه إنما خلقها لحكمة فلا تضاف إليه من جهة كونها سيئة بل من جهة ما تضمنته من الحكمة والعدل والحمد وتضاف إلى النفس كونها سيئة ولما ذكر الحسنة مفردة عن السيئة قال ما أصابك من حسنة فمن الله ولم يقل من عند الله فالخير منه وأنه موجب أسمائه وصفاته والشر الذي هو بالنسبة إلى العبد شر من عنده سبحانه فإنه مخلوق له عدلا منه وحكمة. (

والله تعالى رتب الجزاء على العمل قال تعالى) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى(وقال) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً(،وقال) وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (فمن عفا ، عفا الله عنه ومن صفح ، صفح عنه ومن عامل الله فيما يحب وعامل عباده بما يحبون وبما ينفعهم ، نال محبة الله ومحبة عباده واستوثق له أمره.

وهو سبحانه يجازي من تواطئوا على الباطل بنقيض قصدهم قال تعالى) :وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً ،كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً(، وتدبر قوله تعالى) :وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً. (

قال القرافي (الفروق ٨) : (354 / إن عوائد الله إذا دلت على شيء وجب اعتقاده ، وإذا لم تدل على شيء حرم اعتقاده)، وهذا باب عظيم من







أبواب الشر يفتحه الإنسان على نفسه بعدم تدبره في مآلات الأمور من ذلك ما تقوم به بعض دول المنطقة من مشاركة أمريكا في حربها على الإسلام باسم ما تدعيه "الحرب على الإرهاب " فقاموا باعتقال بعض الشباب المتدين ، دون تهمة واضحة أو جرم ارتكب ، وإنما تزلفا لأمريكا ، والبعض يطارد ويلاحق وإذا قبض عليهم سلموا لأمريكا لأنهم على القائمة الأمريكية لما تسميه الإرهاب ، وبعض الدول تلجأ إلى افتعال أزمات مع المتدينين من أجل التخلص من أزمة سياسية قد تعانيها مع أمريكا.

فنقول إن هذه الطريقة هي التي ستسلط أمريكا في نهاية المطاف عليهم ، فقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل ، ولا يغترَّنّ أحد بموقف عاجل فثلاث أو أربع سنوات ليست طويلة في عمر الدول ، والشباب المتدين هم ثروة الأمة في مقاومة العدوان الأمريكي وغير الأمريكي ، والحاضر شاهد على ذلك فحينما احتلت أمريكا العراق لم تجد الأمة أحدا يدافع عنها إلا شباب المساجد الذين كانوا يدفعون في الأبواب وتمطرهم قوات الأمن بوابل تقاريرها صباح مساء.

وأما ما حصل من بعض الأعمال التي نسبت لبعض من ينسبون إلى الدين ، فهي لا تبرر أبدا كل هذه الحملة من العدوان التي يتعرض لها المتدينون بل والدين نفسه أحيانا ، وقد حصل من أهل الفساد أكثر وأبشع منها بكثير، ومن يتابع قصص الجاسوسية لإسرائيل وغيرها من الدول ، لا يجد أن أيا من عمليات التجنيد قد حدثت في مسجد أو حلقة علم وإنما كانت النساء والخمور حاضرة فيها جميعا وبلا استثناء ، ومع ذلك لم نجد أن حانة واحدة قد أغلقت أو محلا لبيع الخمور قد هدم.

وما نشهده في بعض الدول التي كانت في الأمس القريب من أشد الدول محافظة على أصول الإيمان والدين من تغيير في مناهج التعليم، ومن فسح المجال للعلمانيين وأصحاب المنهج الأمريكي وتمكينهم من غزو عقول الناس بدعوى محاربة التطرف الإسلامي، سيكون له عواقب وخيمة ليس في قتل روح التدين عند الناس فحسب، وإنما في قتل الرجولة والنخوة والاعتزاز بالوطن عند الأجيال القادمة، وعندها ستكون الفرصة مواتية للغرب وأمريكا لاحتلال بلادنا الإسلامية بلا ثمن وعندها ستتحقق نظرية نيكسون" نصر بلا حرب."

إن ما يجري لن يحقق الأمن لبلداننا وإنما إتباع منهج الله ودخول حصنه الحصين وإتباع السياسة الربانية فلا غدر ولا مخاتلة وإنما نصح وتبيان هو الذي سيحقق الأمن قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ، وأمريكا مهما بلغت ، حالها حال الدجال لن تعدو قدرها الذي قدره الله لها وهي لا تملك لنفسها رزقا ولا موتا ولا حياة فضلا عن أن تملكه لغيرها قال تعالى﴿ :أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ فالرزق من الله وليس من سفن أمريكا التي ترابط أمام شواطئنا ، قال تعالى﴿ :وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً.﴾

وأما ما حدث من تسلط أمريكا وإمساكها ببعض خيوط القرار فنقول إنها من أقدار الله التي حدثت نتيجة قيام مسبباتها إما عقوبة على ذنب أو امتحانا لصبر أو لحكمة يعلمها الله تعالى قال الله عز وجل﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ، والواجب علينا أن ننازع هذا القدر بأقدار الله بوجوب العمل وبكل الوسائل المشروعة لرد العدوان واسترداد الحقوق، كما يعالج المرض بالدواء المباح، وباختصار فأمريكا ليست قدر الله الذي لا يجوز أن يرد بل هي من قدر الله الذي يجب أن يرد بكل الوسائل المشروعة.

إن دولنا اليوم بحاجة إلى خطة سلام مع نفسها بدلا من خطط الاستسلام مع عدو غادر، تبدأ بإعلان الاستسلام والإنقياد لرب العباد ، واحتضان أهل الإيمان فإنهم ثروة الأمة الحقيقية في مواجهة الأخطار بدلا من أن تحتضنهم أجهزة مخابرات غربية أو شرقية تخدعهم وتستخدمهم وقودا لمشاريعها في تدمير منطقتنا ، وما حصل من خروج عن رسوم الشريعة ليس سببه المشايخ كما يزعمون بل سببه الاستفزاز الإعلامي الذي تجاوز حده في الاستهزاء بالدين وقيمه العليا ، وسببه قوات الأمن التي لا تعرف الرحمة ولا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا.

إن هؤلاء الشباب ببساطة ليسوا خريجي المدارس الإسلامية في مكة أو المدينة أو مصر أو الباكستان أو تركيا ، إنهم خريجو السجن والمحنة وسياط التعذيب وفنونه ، والخطة الهامة في إصلاحهم أن يفسح المجال لأهل العلم الرباني للدعوة إلى الله واحتضان الجيل القادم وتربيته على







أعينهم بصغار العلم قبل كباره ، ويجب أن يعاد دعاة الفتنة المعادين لدين الله إلى جحورهم المظلمة ، وعلينا الاستهداء بالنور الأول الذي بدد ظلمات الجاهلية الأولى لكي تعود الأمجاد من جديد كما قال الإمام مالك رحمه الله (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.(

::الخاتمة::

وبعدُ ، فانه قد جف القلم ، وتم الشرع ومضى القدر بتحقيق الكتاب وتصديق الرسل وظهور دعوتهم وسعادة من وعى عن ربه وفهم عن نبيه فعمل واتقى ، وشقاوة من صد وتكبر فلم يقبل الهدى فظلم واعتدى ، قال تعال (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً),وقال:(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ).

وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله وسلم تسليما كثيرا..

د.إبراهيم الشمري الناطق الرسمي باسم

الجيش الإسلامي في العراق

١٨ صفر ١٤٣١هـ

٣-٢-٢٠١٠ م